قراءة في كتاب البديع لابن المعتز
دراسة وتقويم

الدكتور جليل رشيد فالح
كلية الآداب — جامعة الموصل

١ — توطئة : ظاهرة البديع بين الاتجاه الشعري والدرس البلاغي :

حين يذكر البديع تنصرف اذهان الدارسين إلى العلم الثالث من علوم البلاغة العربية ، ذلك العلم الذي اجتمعت في رحابه فنون معينة معروفة استقرت في مضمار الدرس البلاغي بأسمائها وتعريفاتها وأمثلتها متميزة عن موضوعات العلمين الآخرين : المعاني والبيان ،

ويشير مؤرخو البلاغة العربية إلى ان المصطلحات البلاغية كانت ترد في دراسة الظواهر الأسلوبية من غير تحديد علمي دقيق لمدلولاتها الاصطلاحية ، حتى جاء ابو يعقوب السكاكي (٦٢٦هـ) فتم على يديه تقسيم البلاغة العربية إلى علومها الثلاثة المعروفة ، كما يشير إلى ذلك الدكتور احمد مطلوب في قوله :

«ولم تزل البلاغة تكمل شيئاً فشيئاً إلى ان مخض السكاكي زبدتها وهذّب مسائلها ورتب ابوابها ، فكان بذلك اول من قسم البلاغة إلى علمين متميزين علم يتعلق بالنظم سماه علم المعاني ، وعلم يتعلق بالتشبيه والمجاز والكناية او بالصورة سماه علم البيان ، ولم يسم القسم الثالث بديعاً ، وانما هو عنده وجوه مخصوصة كثيراً ما يؤتى بها لتحسين الكلام» (١)

(١) البلاغة عند السكاكي : ١١٧

«وقسمها إلى قسمين : قسم يرجع إلى المعنى ... وقسم يرجع إلى اللفظ» (٢)

وهو في هذا التقسيم ينحو منحى الفخر الرازي (٦٠٦هـ) الذي تكلم على المحسنات البديعية ولكنه لم يجمعها في بحث واحد . ويميزه عن السكاكي انه «قسم المحسنات إلى قسمين : قسم بحثه في الجملة الاولى الخاصة بالمفردات ، والآخر بحثه في الجملة الثانية الخاصة بالنظم» (٣) .

ولم يكن صنيع البلاغيين من لدن الرازي والسكاكي في تحديد معالم شخصية هذا العلم وافراده عن صنويه : المعاني والبيان جديداً مبتدعاً ، فان هؤلاء المتأخرين نظروا إلى البديع كما نظر اليه السابقون عليهم. بل انهم استمدوا رؤيتهم من اهتمامهم الخاص بالبديع تياراً شعرياً له مميزاته وسماته وفنونه . فقد ذهب الاصبهاني — صاحب الاغاني ، إلى ان مسلم بن الوليد — صريع الغواني — كان اول من اطلق تسمية البديع على هذا التيار الجديد الذي كان استجابة لدواعي الحياة الحضارية في العصر الاسلامي .

قال : «وهو — اي مسلم — فيما زعموا اول من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف وتبعه فيه جماعة واشهرهم فيه ابو تمام الطائي فانه جعل شعره كله مذهباً واحداً فيه» (٤)

الا ان صاحب الاغاني يذكر كذلك ان محمد بن القاسم بن مهرويه ينسب تسمية البديع إلى ناس ذلك العصر ويثبت لمسلم انه اول من نظم فيه معتدآ ذلك من المآخذ عليه، فقال : «اول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد جاء بهذا الذي سماه الناس البديع» (٥)

ويتحدث الجاحظ عن هذا الاتجاه ورواده فيقول :

«ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة

---

(٢) م : ن ١٢٢ — ١٢٣
(٣) م . ن ٢٥٨
(٤) الاغاني ١٩/٣١ (الهيئة المصرية العامة للكتاب) .
(٥) الاغاني : ١٩/ ٣١ .

مع البيان الحسن : كلثوم بن عمرو العتابي وكنيته ابو عمرو ، وعلى الفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمري ومسلم بن الوليد الأنصاري واشباههما ، وكان العتابي يحذو حذو بشار في البديع ، ولم يكن من المولدين اصوب بديعاً من بشار وابن هرمة» (٦)

وقال في موضع آخر :

«والراعي كثير البديع ، وبشار حسن البديع ، والعتابي يذهب شعره في البديع مذهب بشار» (٧)

ولست اذهب إلى ما ذهب اليه الدارسون المحدثون من ان البديع قبل التقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة كان يقصد به البلاغة عامة ،

من مثل ما ذهب اليه الدكتور بدوي طبانة في قوله :

«ولم يكن ابن المعتز يعني من البديع او يفهم منه ما فهمه منه البلاغيون المتأخرون من انه العلم الذي يبحث في وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة على المعنى المراد» (٨)

واحتج على ذلك بوجود الاستعارة والتشبيه والكناية فيما اورد ابن المعتز من فنون البديع ، وكذلك وجود الالتفات — وهو من اساليب المعاني .

وفي ذلك يسعنا القول : إنه على الرغم من وجود هذه الظواهر الفنية فيما ذكر ابن المعتز فان الغلبة لتلك الفنون التي استقرت في مضمار علم البديع .

---

(٦) البيان والتبيين : ١ / ٥١ .

(٧) البيان والتبيين : ٤/٥٦

(٨) البيان العربي : ٩٩ ، وذهب الى الرأي نفسه الدكتور مازن المبارك فى قوله : « ولم يكن البديع عنده يعني مايعنيه اليوم من فنون بديعية ، وانما هوعنده فنون بلاغية متنوعة» —الموجز في تأريخ البلاغة — ٦٩ .
ولكنه في موضع آخر يعود ليقول : « ولكن ابن المعتز كان اول من افرد للبديع كتاباً وخصه بالتأليف ، وكان اول من حاول جمع فنون البديع في كتاب واحد » .
الموجز : ٦٩ وكذلك يرى الدكتور ، كامل حسن البصير أن ابن المعتز أدار مصطلح البديع تسمية شاملة للفنون البلاغية على عهده— بناء الصورة الفنية في البيان العربي — ٢٩.

ولم يكن اخراج الاستعارة والتشبيه والكناية من هذا المضمار الا لاعتبارات دلالية حكمتها معايير التعبير المجازي مقارنة بمعايير التعبير الحقيقي (المباشر) اما السمة البديعية باعتبارها سمة جمالية عبر عنها بمحاسن الكلام فهي من ابرز ما تتحلى به فنون التعبير المجازي ، ومن ثمة فان لهذه الفنون اعتباريـن يلحظان عند التعامل معها :

اولهما : اعتبار دلالي تولى علم البيان تحديد مساره الاسلوبي ووظيفتـه المعنوية ، وثانيهما : اعتبار تولى علم البديع ابراز ملامحه وخصائصه .

وتبقى بعد ذلك فنون بديعية لم تستطع الدائرة المجازية احتواءها لتفردها بالخصائص الجمالية فضلاً عن دلالتها المعنوية ، وهي فنون متعددة بالقياس إلى ماخرج من هذه الدائرة وانضم إلى مباحث علم البيان،ثم استقرت هذه الفنون في مباحث البلاغيين على انها من فنون العلم الثالث (البديع) .

ولا يخامرنا شك في ان الباحثين الذين رصدوا تيار البديع فانما رصدوه انطلاقاً من رؤية ثابتة لظاهرة لها جذورها القديمة، ثم كان الوعي الحضاري باعثاً رئيساً من بواعث التنبه لها واصطناعها نهجاً له دعاته وحماته،ولا مناص من القول إن لكل نهج اسسه وبواعثه ورسومه الواضحة المعالم .

وقد تنبه الدكتور طه حسين إلى هذا الاتجاه المتميز وقدمه في الشعر العربي حيث قال :

« ان صناعة الفن البياني الخالص وتعمده والالحاح فيه ليست — كمـا نظن—من مظاهر الحياة الأدبية الجديدة ايام بني العباس وبخاصة اوس وزهير وليس مسلم بن الوليد هو مبتكرها أ ومنميها —كما كنا نظن — وليست هذه المدرسة البيانية في الشعر — هذه المدرسة التي تعنى بالفن للفن — عباسية النشأة او عباسية النمو والنهضة،وانماهي اقدم من ذلك وأبعد في تأريخ الشعر العربي اثراً ، نشأت في العصر الجاهلي وانشأها اوس بن حجر ونماها زهيـر ،

والحطيئة. وكان لهم ممثلون في العصر الأموي منهم جميل وكثير، واتصلت سنتها الى ايام بني العباس فتناولها مسلم ثم ابو تمام وابن المعتز ثم المتنبي»(٩)

ومما يعزز رأينا في ان الاتجاه البديعي تجاه محدد السمات معروف الملامح أن الجاحظ يعرض له بما يؤكد هذا التحديد ، اذ يقول :

« وهذا الذي تسميه الرواة بالبديع » (١٠)

أليس قوله(هذا الذي) اشارة صريحة الى حالة او مذهب او تجاه يتميز بسمات وخصائص فنية لها وقعها في النفس كما لها موقعها في مفاصل العمل الابداعي ، وفي موضع آخر يؤكد الجاحظ هذا التحديد حين يتحدث عن العتابي فيقول :« وعلى الفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من تكلف ذلك من شعراء المولدين ، كالنمري ومسلم واشباههما ، وكان العتابي يحتذي حذو بشار في البديع » (١١)

وفضلا عن ان ذلك يشير الى تجاه فني او مذهب شعري جديد محدد السمات والخصائص فان ذلك يعني ايضاً التفنن في عرض المعني في صورة جديدة تحققها فنون عرفت في العربية قديماً من مضمار محدود وتنبه لها في العصر العباسي فاتسع نطاق استخدامها وذاع امرها في اوساط الناس —ولاسيما الشعراء منهم .

ثم تبلورت مذهباً شعرياً تبناه الشعراء المحدثون اذ وجدوا فيه روحاً حضارية جديدة تمنح الشعر العربي حياة ونماء وقوة ،وتنآى به عن ميادين التقليد والاحتذاء للقديم ، وتكرار ماستهلك من الصور والتعابير .

---

(٩) في الأدب الجاهلي : ٢٧٢

(١٠) البيان والتبيين : ٤/ ٥٥ .

(١١) البيان والتبيين : ١/ ٥١

٢ – ابن المعتز وكتاب البديع

في ضوء ماسلف نقول : « اذا كان الأمر كذلك عند القدامى الذين نظروا الى العمل الابداعي فناً له خصائصه ومناهجه ومدارسه فان ابن المعتز حين الف كتابه(البديع) فانما كان يصدر عن ذات الرؤية والتصور ، وقد نظر اليه فنوناً ولدت في احضان تجاه شعري كانت له جذوره في القديم (١٢) ثم نما في العصر العباسي نمواً واضح السمات مكتمل الملامح ، كما نظر اليه فنوناً ذات خصائص اسلوبية محددة يجدر بالباحث ان يعرضها بأسلوب منهجي ييسر على الدارسين الرجوع اليها للالمام بها ومعرفة حدودها ووظائفها وقيمتها في مضمار التعبير الأدبي شعراً ونثراً . لتصبح من بعد مادة بلاغية متميزة تدرس الى جانب موضوعات اخرى تتصل بأساليب القول المختلفة وانماط التعبير الفنية المتنوعة . وقد عرض الباحثون القدامى والمحدثون الى المنهج التعليمي لكتاب البديع .

يقول بهاء الدين السبكي (٧٧٣ هـ) : « اعلم ان انواع البديع كثيرة ، وقد صنف فيها ، واول من اخترع ذلك عبد الله بن المعتز وجمع منها سبعة عشر نوعاً » (١٣) .

ويقول الدكتور بدوي طبانة :

« وعلم البديع كان اول من الف فيه عبد الله بن المعتز وجمع في مؤلفه ماوقع من ضروب تحسين الكلام في كتاب الله وحديث الرسول وكلام بلغاء العرب وأطلق على كل ضرب منها اسماً خاصاً » (١٤) .

---

(١٢) احصى الدكتور احمد ابراهيم موسى ٢٦ نوعاً من انواع البديع المعنوية وستة من الانواع اللفظية في الشعر القديم – ينظر الصبغ البديعي في اللغة العربية ٢٦ – ٤١ .

(١٣) عروس الافراح : ٤/ ٤٦٧

(١٤) ابو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية : ٢١٦

ويذهب الدكتور عبد العزيز عتيق المذهب نفسه في ان ابن المعتز انما كان ثأليفه لكتابه ضرباً من ضروب التأليف المنهجي لعلم البديع ، اذ يقول :

« ان ابن المعتز اول من وضع كتاباً في البديع ضمنه ماتوصل اليه من فنون بديعية ، وبذلك يعد المؤسس الاول لعلم البديع » (١٥) .

وكذلك يرى الدكتور عبد القادر حسين« ان هذا الكتاب يعد اول محاولة علمية جادة في تدوين علم البديع ، بل في علوم البلاغة التي كان يطلق عليها في عصره كلمة البديع احياناً وكلمة البيان احياناً اخرى كما في كتاب البيان والتبيين للجاحظ .... وانما قيمة الكتاب أنه ضم الوان البديع التي كانت سائدة في عصره بين دفتي كتاب واحد » (١٦) .

ويجعل الدكتور علي عشري زايد كتاب البديع بداية لمرحلة الاستقرار في التأليف البلاغي او مايسميه ببداية استقلال البلاغة .

يقول : « فهذا الكتاب هو أول كتاب في تأريخ البلاغة العربية معروف لنا يرصد بأكمله القضايا والمباحث البلاغية » (١٧) .

وعلى الرغم من ان الدكتور علي عشري زايد يرى « ان ابن المعتز يستخدم مصطلح البديع بمدلوله العام .... وليس بمدلوله الخاص الذي تحدد فيما بعد على يد مدرسة السكاكي» (١٨) .

فان اشارته السابقة تحدد الصفة المنهجية التعليمية لكتاب البديع ، اي ان رصد التيار الشعري تحول الى مادة علمية لها فنونها وعنواناتها المحددة ، وتعاريف لتلك الفنون تهدي الدارسين الى حقيقة ما ينطوي عليه هذا العلم من دلالات ومفاهيم .

---

(١٥) تأريخ النقد الادبي : ٣٩٨ .
(١٦) المختصر في تأريخ البلاغة : ٩٨ .
(١٧) البلاغة العربية وتأريخها مصادرها – مناهجها – ١٠٨ – ١٠٩
(١٨) م . ن – ١٠٩

وفي سبيل تحديد هذا الاتجاه المنهجي التعليمي نجد الدكتور احمد ابراهيم موسى يضع اصابعنا بدقة ووضوح على معالم هذا النهج الذي من أجله وضع ابن المعتز كتابه ، حيث يقول : عن ابن المعتز أنه « يضع بين يدي الناشئين دستوراً يمدهم بمقومات هذه الصنعة التي اباحها الذوق العربي ويعصمهم من الوقوع في محرماتها التي تسلمهم الى الاسترذال وتنزل بأشعارهم الى الحضيض » (١٩) .

وثقف النقاد والبلاغيون من بعده مهمة هذا النهج ، فألفوا في البديع وتوسعوا في اختراع فنونه وزيادة عددها .

فأسامة بن منقذ (٥٨٤ هـ) يسمى كتابه (البديع في نقد الشعر) ويورد فيه ٢٩٥ فناً بديعياً ، وقد استقى مادة الكتاب من بديع ابن المعتز وكتابي الحالي وحلية المحاضرة للحاتمي والصناعتين للعسكري والعمدة لابن رشيق (٢٠) .

وثمة غاية مثلى كانت قد استحثت ابن المعتز على تأليف كتابه ، وقد أعلن عنها في مستهل الكتاب ، وهي اثبات اصالة هذه الظاهرة وقدمها في الشعر العربي ، وذلك اظهاراً لحقيقة تأريخية موضوعية ، ولا أحسب ان الخلاف في هذه المسألة حول دعاوي المحدثين من الشعراء من انهم اصحاب هذا المذهب ومبتكروه شيء يتصل بالشعوبية او الرغبة في انكار فضل العرب الاوائل في اصطناع البديع او معرفتهم له في اشعارهم ، فليس ثمة ما يشير الى وجود هذه النزعة او الرغبة في الكيد للعرب ، فضلا عن ان ابن المعتز عرض للأمر بعيداً عن الاشارة الى وجود هذه الرغبة او تلك النزعة ، ولذلك فانه ضرب من التوهم ان يقول الدكتور مازن مبارك « وهكذا يقضي ابن المعتز على آمال المدعين والشعوبيين حتى لايفتخر احد منهم بابتكار فن جديد او يفاخر احدهم العرب باختراع فن في كلامهم لم يكونوا السباقين اليه»(٢١).

(١٩) الصبغ البديعي في اللغة العربية — ١٣٠
(٢٠) ينظر البديعي في نقد الشعر — ٨
(٢١) الموجز في تأريخ البلاغة :

وكل ماذكره ابن المعتز في هذا الصدد اثبات حقيقة السبق حسب ، ويتضح ذلك في قوله .

« وانما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس ان المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى شيء من ابواب البديع » (٢٢) .

ولو كان ثمة ملامح تشي بكيد او سوء منزع فان ابن المعتز اولى النـاس بأن يتحدث عن ذلك بصريح القول ، ويتصدى لهذا الضرب من المحاولات بالدفاع المستميت ، فهو الخليفة العربي الذي يحمي بيضة العربية ويرد غوائل الكيد عن تراث العرب وحضارتهم وعقيدتهم .

واذا ما كان اسم بشار وابي نواس يرد في سياق الشعراء المحدثين وهمـا من يرميان بالشعوبية فأن ثمة شعراء آخرين هم عرب خلص لم يؤثر عنهـم ما يصل اسبابهم بأسباب الشعوبية ولاسيما الشاعر العربي الكبير ابو تمام الطائي

حتى ان خصوم هذا التيار لم يقفوا من رواده إلا الموقف النقدي المحض، يقول المرزباني (ت ٣٨٤هـ) : « سمعت ابن الاعرابي يقول : ان اشعار هؤلاء المحدثين مثل ابي نواس وغيره مثل الريحان يشم يوماً ويذوي فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً » (٢٣)

وكل ماورد في مصادرنا النقدية من مقولات تقف موقفاً رافضاً اومتحفظاً انما يجري في مجرى نقدي بحت لايلمح فيه مايشير الى شعوبية او موقـف مناهض فيه كيد وازدراء .

وثمة أمر آخر يبعد الظن ان يكون ابن المعتز قد اثبت اصالة البديع للعرب بدافع منازعة المحدثين او الوقوف في وجه اتجاههم الجديد انه هو نفسه كان يجري في مضمار الحداثة شاعراً وناقداً ، وفي سياق هذا الوعـي الشعري والنقدي يخضع هذا التيار لرؤية حصيفة مدركة توخت الاعتدال والموازنة

(٢٢) البديع : ٣
(٢٣) الموشح : ٣٨٤

والتثبت، فضلا عن ترحيبه لنزعة التجديد الحضاري والفني للشعر وهو تجديد لروحه وحيويته وشبابه، فقد رأى ان المحدثين كثر في اشعارهم هذا اللون البديعي وشاع امره « فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه » (٢٤) .

ولكنه يعود ليسجل على هذا التيار مأخذا على قدر وافر من الأهمية والأنصاف وهو انكاره هذا الاسراف في حشد الألوان البديعية في الأثر الابداعي واثقاله بها على نحو يكد الذهن ويبهظ الخاطر ، يقول :

« ثم ان حبيب بن اوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه واكثر منه فأحسن في بعض وأساء في بعض، وتلك عقبى الافراط وثمرة الاسراف » (٢٥) .

تتضح لنا فيما اوردنا تلك الغاية الرئيسة لتأليف كتاب البديع ، ولكنني أزعم ان ثمة غاية اخرى لم يعلن عنها ابن المعتز بالقول الصريح ، ولكن وجود الكتاب بهذه الصيغة المنهجية يدلنا على تلك الغاية غير المصرح بها.

بعد ان مهد ابن المعتز لكتابه ببيان بواعث تأليفه عمد الى نهج تعليمي في ترتيب الفنون البديعية ترتيباً توخى فيه التحديد والايجاز وضرب الأمثلة المنتقاة التي تحقق للقارىء غايتين اثنتين :

١ ــ اصالة الفن البديعي من خلال الشواهد الأصيلة من قرآن وحديث وشعر قديم .

٢ ــ الشواهد الشائقة التي تعبر عن الفن البديعي وتكشف عن مواطن الجمال الذاتي فيه بحيث اوحى الى البلاغيين من بعده ان يقسموا الفنون البديعية الى ذاتي وعرضي.

---

(٢٤) البديع : ١

(٢٥) البديع : ١

لقد كانت شواهد الكتاب عربية اصيلة دلت على المنزع الذاتي عند الشاعر بحيث يكون ورود الفن البديعي من دواعي السياق ومقتضى الحال ، أما العرضي فكانت شواهده من الأمثلة المصنوعة التي يخضع فيها الشاعر في نظمه لدواعي التيار نفسه على سبيل المفاخرة والمباهاة او قل المباراة مع الشعراء الذين رأوا ان حشد العدد الكبير من فنون البديع هو محك الابداع ومجلى التفوق ضمن سياقات العصر وأعرافه الفنية .

ويرى الدكتور احمد مطلوب أن ابن المعتز قد سعى في كتابه هذا الى تحقيق هدفين :

« الأول : نقدي للشعراء يوازن بين ماقالوه ويستحسن ويرفض مالايرى ويرجعهم عن صلفهم بأن ما اخترعوه من اللطيف او البديع انما كان من لطيف حسن الأقدمين وبديع تصورهم .

الثاني : تقنيني قاعدي ، فقد جمع صنوف البديع المعروفة وزاد عليها ووضع لها تسميتها وأغرى من بعده ليحذو حذوه ويسلك سبيله » (٢٦) .

ان اول مايبدهنا به ابن المعتز — ضمن هذا الاطار المنهجي — تحديده مفهوم البديع بأنه « اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ماهو » (٢٧) .

نستخلص من هذه المقولة الوجيزة مسائل عدة اهمها .

١ — حداثة هذا المصطلح حيث ان القدماء لم يعرفوا هذا الاسم ، وهذا امر بديهي يخضع لمبدأ ظهور المصطلحات العلمية التي تحدد المفاهيم والاتجاهات والمذاهب .

(٢٦) مناهج بلاغية : ١٢٥ — ١٢٦
(٢٧) البديع : ٥٨

وظاهرة الاصطلاح تنبع من الوعي الحضاري للأمة ، إذ تبدأ بتدوين معارفها وعلومها ، ويضع رجالها المؤلفات والمصنفات التي تخضع لمنهجية محددة المعالم ، ومما يؤكد علمية المنهج الذي اتبعه ابن المعتز في وضع كتابه ماقاله أبو بكر الصولي : « اجتمعت عند جماعة من الشعراء عند ابي العباس عبد الله بن المعتز وكان يتحقق بعلم البديع تحققاً ينصر دعواه فيه لسان . فذاكرته فلم يبق مسلك من مسالك الشعراء الا سلك بنا شعباً من شعابه » (٢٨) .

وحين يتحدث محمد مندور عن اثر ابن المعتز في من بعده يرى ان فضله كبير في تحديد الاصطلاحات ، يقول :

« ولو لم يكن له من فضل غير تحديد الأصطلاحات لكفاه ذلك ، ليتمتع في تأريخ النقد العربي بمكانة هامة ، وذلك لأن كل دراسة لابد لها من اصطلاحات .... ففي الأصطلاحات عادة تتركز مبادىء كل علم وفن » (٢٩) .

٢ — ومما يلحظ — في اطار المنهج الذي اصطنعه ابن المعتز لدراسته البديعية هذه — انه وزع فنون البديع على محورين : محور سماه البديع : ويشتمل على خمسة فنون ، وهي : الأستعارة والتجنيس والمطابقة ورد اعجاز الكلام على ماتقدمها والمذهب الكلامي .

وفي المحور الثاني اورد ثلاثة عشر فناً وصفها بأنها من محاسن الكلام والشعر ، وهي : الالتفات والأعتراض والرجوع وحسن الخروج وتأكيد المدح وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد وحسن التضمين والتعريض والكناية والأفراط في الصفة وحسن التشبيه ولزوم مالايلزم وحسن الابتداء واعنات الشاعر نفسه في القوافي (٣٠) .

---

(٢٨) زهر الاداب ٢ / ١٧٧

(٢٩) النقد المنهجي عند العرب : ٦١ .

(٣٠) البديع : ٥٧ وما بعدها .

ولقد ذهب الباحثون مذاهب شتى في تعليل توزيع الفنون على هذين المحورين ، فالدكتور بدوي طبانة ينفي ماذهب اليه بعض الباحثين من ان سبب الفصل بين البديع ومحاسن الكلام هو ان فنون البديع اكثر دوراناً في الادب من محاسن الكلام وأقدم استعمالا او استخراجاً . ويذهب الى ان في البديع فنوناً قد تقل أهمية عند الأدباء من بعض فنون محاسن الكلام (٣١) .

ولذلك فان الدكتور بدوي طبانة يعرض لنا علة اخرى فيقول : « وسنجد هذه العلة في ان ابن المعتز لم يؤلف كتابه في وقت واحد بل ألفه على مرحلتين » (٣٢) .

الا ان الدكتور طبانة — وهو يورد علته هذه — لم يشفعها بدليل منطقي يجعلنا نطمئن الى ماذهب اليه ، ولعله نفسه لم يكن مطمئناً الى ماذهب اليه بدليل انه رأى في هذا الفصل رأياً آخر يقول فيه :

« ولعل ابن المعتز سمع بعد ذلك من بعض النقاد والمتتبعين اعتراضاً على قصر البديع على دعواهم ، وكتب بقية المحاسن وضمها الى الفنون الخمسة لينفي عن نفسه مظنة الجهل بتلك البقية » (٣٣) .

واستخلص الدكتور طبانة هذا الرأي من مقولة لابن المعتز نفسه يقول فيها : « ونحن الان نذكر بعض محاسن الكلام والشعر : ومحاسنهما كثيرة لاينبغي للعالم ان يدعي الاحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره ، وأحببنا لذلك ان تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ، ويعلم الناظر انا اقتصرنا بالبديع على تلك الخمسة اختياراً من غير جهل بمحاسن الكلام ولأضيق في المعرفة » (٣٤) .

---

(٣١) البيان العربي : ٩٨ ا
(٣٢) البيان العربي : ٩٨
(٣٣) البيان العربي : ٩٩ .
(٣٤) البديع ٥٨ .

اما الدكتور شوقي ضيف فقد اراد ان يوضح موضوع الفصل بين فنون البديع فذهب الى الاعتقاد بأن « ابن المعتز انما اكتفى بفنون خمسة من محاسن الكلام رأى ان يخصها باسم البديع لانها فعلا الفنون التي كانت موضع أخذ ورد بين اصحاب البلاغة العربية الخالصة وبين طوائف الفلسفة ومن ينزعون نحو التجديد المسرف) (٣٥) .

وما ذهب اليه الدكتور شوقي ضيف يمثل نظرة أحادية الى الفنون الخمسة المسماة بالبديع ، معتداً اياها من محاسن الكلام ، وكأننا نفهم من قوله ذلك ان ليس ثمة فرق بين القسمين .

ولقد عزا الدكتور ابراهيم سلامة تقسيم الفنون البديعية الى كثرة النوع الاول — اي البديع — في الشعر ، وان النوع الثاني — محاسن الكلام — هو عام بين الشعر والنثر ، وذهب الى ان الاصناف الخمسة عرفها الشعراء كما عرفها الجاحظ قبل أن يعرفها ابن المعتز ، اما بقية المحسنات فأنها — فيما يرى الدكتور سلامة — من اختراع ابن المعتز (٣٦) .

وما ذهب اليه الدكتور سلامة لايثبت امام المنهج العلمي لأنه دعوى لادليل عليها وغير معززة بسند علمي .

وقد رد الدكتور احمد مطلوب على ماذهب اليه بقوله :

« وماذكره الدكتور سلامة لايقنع الباحث ، لأن القسم الاول والثاني يأتيان في النثر والشعر كثيراً ، ولانستطيع ان نقرر ان هذا النوع اكثر استعمالاً ، وذلك اللون أقل شيوعاً الا بعد استقراء شامل للفنين ، ونظرة واحدة الى الشواهد التي اوردها في القسمين لاتؤيد ما ذهب اليه .

اما الشطر الثاني من التعليل فالأول لايمكن التسليم به ، لأن المحسنات التي ذكرها ابن المعتز لم تكن كلها من اختراعه ، فقد ذكر بعضها ابن قتيبة

(٣٥) البلاغة تطور وتاريخ : ٦٩ — ٧٠ .
(٣٦) بلاغة ارسطو بين العرب والونان — ١٣٤ وما بعدها .

والمبرد كالتشبيه والالتفات . وذكر ثعلب حسن الخروج والافراط والكتابة والتعريض » (٣٧) .

وفيما سلف من الآراء حول تقسيم ابن المعتز للفنون البديعية الى بديع ومحسنات لم نجد مانطمئن اليه من الآراء الحاسمة الواضحة ليكون مسوغاً لهذا التقسيم ، ولذلك فاني اذهب الى القول إن ابن المعتز حين سمى القسم الثاني محسنات اباح في الوقت ذاته أن تسمى هذه المحسنات بديعاً ، يدلنا على ذلك بعض مااشار اليه ابن المعتز نفسه في كتابه .

ومن ذلك قوله :

« ولعل بعض من قصر عن السبق الى تأليف هذا الكتاب ستحدثه نفسه وتمنيه مشاركتنا في فضيلته فيسمى فناً من فنون البديع بغير ماسميناه به ، او يزيد في الباب من ابوابه كلاماً منثوراً ... » (٣٨) .

فهو حين يشير الى فنون البديع لايخص قسماً بعينه وانما هو يشير الى الظاهرة كلا دون تجزئة ، فبذلك يشمل مصطلح البديع محسنات الكلام ، وكذلك أباح لمن يأتي من بعده أن يزيد في الباب من ابوابه ،وكل زيادة لم تقيد بأنها تندرج في البديع او في محاسن الكلام ،وانما عد كل ما سيحدث في هذا الباب بديعاً .

وكذلك قوله :

«قد قدمنا ابواب البديع الخمسة وكمل عندنا ، وكأني بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال : البديع اكثر من هذا ، وقال : البديع باب او بابان من الفنون الخمسة التي قدمناها فيقل من يحكم عليه ، لأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين ... » (٣٩) .

---

(٣٧) البلاغة عند السكاكي — ٨٩ .
(٣٨) البديع : ٢ — ٣ .
(٣٩) البديع : ٥٧ — ٥٨ .

فمن هذا النص يستخلص انه اختار هذه الخمسة لتكون مدخلا منهجياً لدراسة أشمل ، ثم جاء بالمحسنات رداً على المعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل وتأكيداً لسعة هذا الاتجاه الفني ، وحرصاً منه على ان تظل الابواب مشرعة مفتوحة أمام التالين له لأن يضيفوا الى هذا الحقل ماشاءت لهم قدراتهم أن يضيفوا ، وتتمثل سعة هذا الحقل في قوله : لأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر ، ولم يقل : انه اسم موضوع يقتصر على فنون خمسة بذاتها.

واما قوله : (عند الشعراء ، ونقاد المتأدبين) فهو غير محدد الدلالة وغير منحصر في فنون بعينيها ، ولذلك ازعم ان ابن المعتز لم يكن ليذهب الى هذا التقسيم ليجعل كل واحد من هذين القسمين قسيماً للاخر قدر ماأراد ان يضع عنواناً كبيراً لهذه المحسنات وهو العنوان الذي شاع في عصره واستخدمه رجال هذا الاتجاه الفني التجديدي من قبل ، واعنى بذلك مصطلح (البديع) وما يندرج تحت هذا البديع هو محسن ، وهو بهذا المعنى بديع يؤدي وظيفة التحسين ويضفي على النص جمالية تدركها الحواس وتستلذها المشاعر ، واحسب ان الخصومة التي قادها الرواة واللغويون في وجه هذا التيار لم تكن خصومة ذوق او احساس ، بل كانت خصومة تحفّظ وحرص وتمحيص كان من بواعثها ان تصان اللغة من العبث والضعف ، «وكان اصحاب هذه الطائفة بجانب قيامهم بتعليم اللغة والتعريف بمقاييسها واشتقاقاتها كانوا يجمعون إلى ذلك معرفة بالشعر العربي وشعرائه ويحفظون هذا الشعر ويروونه ويعرفون معانيه التي كادت تصبح غريبة بعد ان اضناها السير في دروب الزمن ففقدت دلالتها وكادت تصبح غريبة على هذا العصر المتأنق المتحضر» (٤٠)

ويتحدث الدكتور شوقي ضيف عن هذه الخصومة التي نجمت بين الرواة واللغويين واصحاب الاتجاه البديعي المحدث بقوله :

---

(٤٠) المذهب البديعي في الشعر والنقد : ٣٢٩

«ونحن لا نصل إلى القرن الثالث حتى يختل التوازن بين النقاد والشعراء . فقد كان اكثر النقاد من الرواة واللغويين الذين لا يتصلون بالثقافة الحديثة فكرهوا الحديث على هذا الاحساس وأحبوا ما اتصل بعمود الشعر العربي وآثروه على ما يتصل بعمود الفلسفة والثقافة الحديثة» (٤١)

ويلتمس الدكتور احمد ابراهيم موسى لنزعة التعصب مسوّغات فيقول : «كان العلماء حريصين على اللغة ، وكانت همتهم منجهة إلى استقائها من منابعها الخالصة التي لم تكدر بلحن ولم تشب بخطأ حتى تتربى الملكات على الأساليب الصحيحة ... وقد نمى هذه العصبية وأفسح لها مجال الظهور جنوح كثير من الشعراء المحدثين عن طوابع الشعر القديم وانحرافهم عن عموده ومجانبتهم لكثير من طرقه وخطؤهم في المعاني ... والغرام بأصباغ البديع وايثار الزخرف والتنميق في العبارة على جودة المعنى وسلامة الغرض» (٤٢)

وأحسب أن هذا الاتجاه المتحفظ ازاء هذا التيار الجديد لم يكن خصومة حقيقية بمعنى العداء والتصدي والحيلولة دون ان تؤدي اللغة وظيفتها الحضارية ، وانما هي — كما اسلفت — تجاه يضع في حسبانه ان لا يمس كيان اللغة الشامخ بسوء ، وقد املى على حفظة اللغة وروادها ان يقفوا هذا الموقف المتحفظ احساسهم بثقل الامانة التي ندبوا انفسهم لصيانتها واستشعارهم لقدسية لغة القرآن .

وثمة روايات تدل على اغتباطهم بأن يثمر الاتجاه البديعي شعراً تهش له القلوب وتأنس بها النفوس ، ولكن كبرياء الامانة اللغوية كانت تحول بينهم وبين التعبير عن هذا الاعجاب ، «حكي عن اسحق بن ابراهيم الموصلي انه قال: انشدت الاصمعي :

---

(٤١) الفن ومذاهب في الشعر العربي : ٣٣١.

(٤٢) الصبغ البديعي في اللغة العربية : ١٢٢ — ١٢٣

هـــل الى نظرة اليك سبيـــل فقبيل الصدى وتشفـــي الغليـــل
ان ما قل منك عنـــدي كثيـــر وكثيـــر مـــن تحـــب القليـــل

فقال : والله هذا الديباج الخسرواني، لمن تنشدني ؟ فقلت : انهما لليلتهما، قال : لا جرم والله إن اثر التكلف فيهما ظاهر» (٤٣)

ويحكى المرزباني ويقول : «كنا عند ابن الأعرابي فأنشد رجل شعراً لأبي نواس احسن فيه فسكت ، فقال الرجل : اما هذا من احسن الشعر ، فقال : بلى ولكن القديم احب الي » (٤٤)

ولعل ابن المعتز يقف حالة وسطاً بين الحالتين ، فهو تارة يعجب بهذا التيار الجديد ويصبح واحداً من دعاته ورادته ، واخرى توجهه ثقافته الأصيلة إلى شيء من التحفظ فينكر على بعض الشعراء إسرافهم الذي يصل بهم إلى الاساءة والاحالة ، على نحو ما رأينا من موقفه من بديع ابي تمام .

ففي الوقت الذي يشير بعض الباحثين إلى انه كان «علماً من اعلام الصنعة البديعية .... وان كان الطفهم صنعة واحلاهم بديعاً ... (٤٥)

وأنه «من انصار مذهب المحدثين واولع بالبديع» (٤٦) فان ثمة من يرى انه «قد وضع كتابه البديع دفاعاً عن القدماء » (٤٧)

٣ — خصائص منهجه في الكتاب

من خلال وقوفنا على الكتاب رأينا تميزه بخصائص نوجزها في ما يأتي :

١ — كان لابن المعتز فضل في استقرار مصطلحات البديع بحيث ان هذه

(٤٣) الوساطة : ٥٠
(٤٤) الموشح : ٣٨٤
(٤٥) الصبغ البديعي في اللغة العربية : ١٢٩
(٤٦) تأريخ النقد الادبي والبلاغة ، حتى القرن الرابع الهجري : ١٥٣
(٤٧) تأريخ النقد الأدبي عند العرب ٣٩٦ .

المصطلحات بقيت دائرة في مالا كتاب (البديع) من مؤلفات ومباحث في هذا المضمار .

٢ — اختياره للشواهد والأمثلة في القرآن والحديث ومن التراث العربي الأصيل وفر الثقة من ان هذه الفنون ليست محسنات عرضية في اصل وضعها . وان استحالت فيما بعد في العصور المتأخرة إلى فنون عرضية متعمدة على النص واتخاذ الاكثار منها مظهراً من مظاهر الابداع والتفوق . فالاختلط الجيد منها بالرديء

ومحاولة ابن المعتز هذه كانت نواة لظهور مقياس جديد في النقد الأدبي هو (المقياس البديعي) الذي يقيس الأدب بما يرد فيه من بديع لا يكتسب صفة القبول والحسف حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساقه اليه... «فما طابق هذا المقياس منه فحسن مقبول . وما شذ عنه فقبيح مرفوض» (٤٨)

٣ — أرسى كتابه في ضوء رؤية خاصة ترى في فنون البديع طاقات جمالية ذاتية يستطيع المبدع ان يكشف عنها بعيداً عن مفهوم الصنعة .

ولذلك لا نتفق مع الدكتور عبدالقادر الرباعي حين ذكر ان ابن المعتز انزلق إلى المصطلح البلاغي فربط واعياً او غير واع البديع بالصنعة الشكلية» (٤٩) فالبديع عند ابن المعتز هو الأسلوب الجديد الطريف المتمثل في هذه الفنون، وهذا هو ذات التصور الذي وصف به ابن قتيبة بديع ابن المعتز اذ يقول :

«مسلم هو اول من الطف في المعاني ودقق في القول . وعليه يعوّل الطائي في ذلك» (٥٠)

---

(٤٨) تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ٣٩٤

(٤٩) البديع الشعري بين الصنعة والخيال . مجلة ابحاث اليرموك : مجلة ٣ العدد : ٢ — السنة ١٩٨٦ . ص ٢٠

(٥٠) الشعر الشعراء : ٢/ ٨٠٨

٤ ـ ربط بين الجانب النظري والجانب التطبيقي مؤكداً أن الاسراف في استخدام الفنون البديعية يفضي إلى السوء والاحالة .

٥ ـ توخيه الانصاف في تنبيه القارىء والمتعلم إلى الامثلة المعيبة التي تمثل فناً بذاته مشعراً بأن النص هو معيار المحاكمة النقدية وليس الفن البديعي ، فقد يمنح الفكرة والصياغة العامة للنص روحاً جديدة لموقعه الأصيل فيه إلى جانب فن لم يحسن وضعه في موضعه المطلوب فبدا متخلخلاً قلقاً نابياً عن سياقه الفني والمعنوي

٦ ـ ثمة ميزة لهذا الكتاب لم يعرض له باحث من قبل ـ فيما اعلم ـ وهي الالمام بالفكرة التي كان رائدها ابن قتيبة وهي الغاء عامل الزمن في المفاضلة بين نص وآخر .

فقد تنوعت شواهده بين قديم ومحدث مما ساغه ذوقه دون ان يخص القديم بثناء لقدمه ، او ان يزري بمحدث لحداثته .

وبعد : فان هذه الجولة مع كتاب (البديع) لابن المعتز تنتهي بنا إلى اهم نتيجة توخيناها وآثرنا التنبيه عليها وهي : ان كتاب البديع بصورته التي بين ايدينا هو اللبنة الاولى في بناء علم البديع مستقلا عن علمي البيان والمعاني ، وعلى حذوه حذا الخالفون المتأخرون في التقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة العربية ، حيث يلتقي تصور هؤلاء المتأخرين ومنهجهم بتصور ابن المعتز ومنهجه ، يدلنا إلى ذلك ان البديعيين ـ على مستوى الابداع او التنظير ـ لم يتطرقوا إلى شيء من موضوعات المعاني كالخبر والانشاء والتقديم والتأخير والفصل والوصل والذكر والحذف والقصر .

كما ان وقوفهم عند الاستعارة والتشبيه كان وقوفاً مبعثه الملمح الجمالي ـ وهو يدخل في باب التحسين البديعي ، دون الوقوف عند الملمح الدلالي الذي يختص به علم البيان .

هذا ما اردنا بيانه في مطاف قراءتنا لكتاب البديع لابن المعتز . اول كتاب مستقل يرسي اسس علم البديع علماً ثالثاً من علوم البلاغة العربية

والله ولي التوفيق .

المصادر والمراجع

١ — ابو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية . د. بدوي طبانة — مكتبة الانجلو المصرية ط ٢ — ١٩٦٠ القاهرة

٢ — الأغاني — ابو الفرج الاصبهاني — تح : عبدالكريم ابراهيم العزباوي — مؤسسة جمال للطباعة والنشر — بيروت .

٣ — البديع — عبدالله بن المعتز — نشرة كراتشوفسكي .

٤ — البديع الشعري بين الصنعة والخيال — د. عبدالقادر الرباعي — مجلة ابحاث اليرموك . المجلد ٣ — العدد : ٢ — سنة ١٩٨٦ .

٥ — البديع في نقد الشعر : اسامة بن منقذ . تح : احمد احمد بدوي — حامد عبدالمجيد — وزارة الثقافة والارشاد القومي — مصر — ط — البابي الحلبي — ١٩٦٠ .

٦ — بلاغة ارسطو بين العرب واليونان — د. ابراهيم سلامة . القاهرة — ط ٢ — ١٩٥٢ .

٧ — البلاغة تطور وتاريخ — د. شوقي ضيف . دار المعارف بمصر — ط ٢ .

٨ — البلاغة العربية — تأريخها — مصادرها — مناهجها — د. علي عشري زايد — مكتبة الشباب — القاهرة — ١٩٨٢ .

٩ — البلاغة عند السكاكي — د. احمد مطلوب . مكتبة النهضة — بغداد — ١٩٦٤ .

١٠ — بناء الصورة الفنية في البيان العربي — د. كامل حسن البصير — مطبوعات المجمع العلمي العراقي . ١٩٨٧ .

١١ ـ البيان العربي ـ دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ـ د. بدوي طبانة ـ دار العودة ـ بيروت ـ ط ٥ ـ ١٩٧٢ .
١٢ ـ البيان والتبيين ـ الجاحظ تح : عبدالسلام هرون ـ مكتبة الخانجي ط ٥ ـ ١٩٨٥ .
١٣ ـ تاريخ النقد الأدبي عند العرب ـ د. عبدالعزيز عتيق . دار النهضة العربية ـ بيروت ، ط ٣ ـ ١٩٨٠ .
١٤ ـ تاريخ النقد الادبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري د. محمد زغلول سلام . منشأة المعارف ـ الاسكندرية ، د.ت .
١٥ ـ زهر الآداب وثمر الألباب ـ الحصري القيرواني . تح : د. زكي مبارك ـ القاهرة ـ ط ٣ ـ ١٩٥٣ .
١٦ ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة . تح : محمود محمد شاكر ـ القاهرة ١٩٦٦ .
١٧ ـ الصبغ البديعي في اللغة العربية ـ د. احمد ابراهيم مرسي ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ مصر ـ المكتبة العربية ـ ١٩٦٩ .
١٨ ـ عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح ـ بهاءالدين السبكي (ضمن شروح التلخيص) مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة .
١٩ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ـ د. شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر ـ ط ٤ ـ ١٩٦٠ .
٢٠ ـ في الأدب الجاهلي : طه حسين ـ دار المعارف بمصر ـ ط ٩ .
٢١ ـ المختصر في تاريخ البلاغة : د. عبدالقادر حسين . دار الشروق ـ بيروت ـ ط ١ /١٩٨٢ .
٢٢ ـ المذهب البديعي في الشعر والنقد ـ د. رجاء محمد عبد. مطبعة قاصد خير ـ القاهرة ـ ١٩٧٨ .

٢٣ – مناهج بلاغية – د. احمد مطلوب – وكالة المطبوعات – الكويت – ط ١ /١٩٧٣ .

٢٤ – الموجز في تاريخ البلاغة : د. مازن المبارك.دار الفكر – بيروت – ١٩٦٨ .

٢٥ – الموشح : ابو عبدالله المرزباني – تح : علي محمد البجاوي – دار نهضة مصر – ١٩٦٥ .

٢٦ – النقد المنهجي عند العرب – د. محمد مندور – دار نهضة مصر – القاهرة – ١٩٤٨ .

٢٧ – الوساطة بين المتنبي وخصومه – القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني – (ت ٣٩٢) تح : محمد ابو الفضل ابراهيم – علي محمد البجاوي ١٩٦٦ .